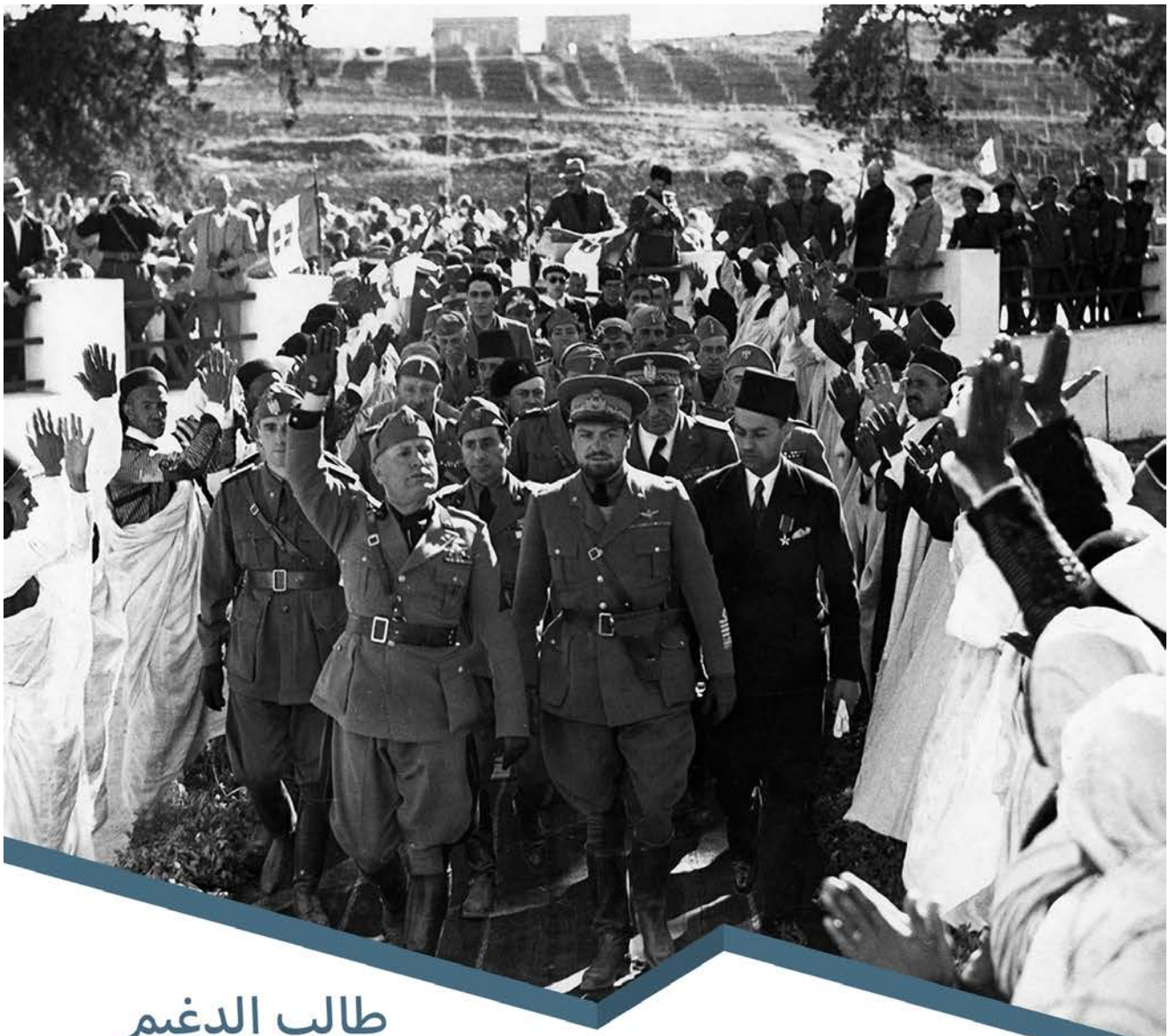

طالب الدغيم

التأثيرات الكولونيالية في بناء الهوية الوطنية في ليبيا

كيف أثرت مرحلة الاستعمار الإيطالي (1911-1942) في الهوية المشتركة لأبناء

مركز إدراك للدراسات والاستشارات
IDRAK CENTER FOR STUDIES & CONSULTATIONS
IDRAK إدراك

التأثيرات الكولونيالية في بناء الهوية الوطنية في ليبيا

كيف أثرت مرحلة الاستعمار الإيطالي (1911-1942) في الهوية المشتركة لأبناء البلاد الليبية "برقة وطرابلس وفزان"

طالب الدغيم

مركز إدراك للدراسات والاستشارات
IDRAK CENTER FOR STUDIES & CONSULTATIONS

نيسان/أبريل 2020

الفهرس

- مقدمة 2
- المبحث الأول. ليبيا: الخصوصية الاجتماعية والظاهرة الاستعمارية 4
- أولاً. خصوصية ليبيا: أخوَّة القبيلة والرابطة الدينية 4
  - نمطان للمجتمع في ليبيا: القبلية والمدينية 4
  - الدعوة السنوسية: رابطة اجتماعية روحية 5
  - الإصلاح العثماني وبروز فئة شبابية مثقفة في ليبيا 6
- ثانياً ـ الظاهرة الاستعمارية في ليبيا "النموذج الإيطالي" 8
- المبحث الثاني: سياسة الاستعمار وبروز هُوية وطنية في ليبيا 11
  - أولاً. سياسة الاستعمار الإيطالي في ليبيا 11
  - ثانياً. الظاهرة السياسية في ليبيا "المقاومة ونشوء الهُوية الليبية" 13
- الخاتمة 19
- الملاحق 21
- المراجع 27
  - المراجع العربية والمُعرَّبة 27
  - المراجع الأجنبية 28

مقدمة

شكلت مرحلة الكولونيالية (الاستعمار الإيطالي 1911-1942) تحدياً واختباراً أمام شبكة الولاءات القبلية والسياسية والدينية والاثنية في المجتمع الليبي، وساهمت تفاعلات تلك المرحلة في انبعاث هوية وطنية بين الليبيين في بدايات نشوء الدولة وخروج المستعمر الأجنبي بين مناطق برقة وطرابلس وفزان.

تعرف الهُويَّة الوطنية على أنها نتاجٌ اجتماعي وثقافيٌ، تُمثل علاقةً متكاملةً تُعّطي المواطنين شعوراً بأنهم مرتبطين ببعضهم بروابطَ تتجاوزُ الانتماءات إلى روابطَ جامعة[1]، ومن هنا، فإننا سَنجدُ في ليبيا نَوعاً من الخصوصية الاجتماعية التاريخية؛ إذ تحولت ليبيا من أرضٍ لا هُويةَ واضحة لأبنائها إلى وطنٍ واحد له اسمٌ وكيان سياسي واجتماعي وثقافي على الخارطةِ العالمية.

وبناء على ذلك، تُحاول هذه الدراسة أن تجيب عن أسئلة مرتبطة بمراحل تكون الهوية في الحالة الليبية[2]، وتتناولُ العوامل السوسيولوجية والاقتصادية والاثنية والمجالية باعتبارها الطريق الذي يُمكّننا من معرفةِ جذور الدولة الليبية في الفترة الحديثة. وما هو الدور التأسيسي العثماني ثم الاستعمار الإيطالي لليبيا، في نشوء الهوية السياسية والاقتصادية والاجتماعية الوطنية. لمعرفة آثار تلك المرحلة على الواقع الليبي الراهن خصوصاً بعد ثورة السابع عشر من فبراير 2011. وهل حقاً تشكلت تلك الهوية الوطنية من الأساس!

تمتاز هذه الدراسة في اعتمادها على المادة المصدرية التي تعود لأشخاص عاصروا الأحداث من كُتَّابٍ وشُعراءَ وسياسيين وعسكريين عَرب وأجانب. وقد واجهت الدراسة صعوبات في مراحل إعدادها؛ بسبب تشعُّبِ الأفكار وافتقار المصادر التاريخية لمعالم واضحة تُمكّنُ من معرفة آليات نشوء الهوية الوطنية الليبية زمن الاستعمار. وعلى الرغم من ذلك، فقد وجدّتُ بأن هناك أهمية للإجابة عن التساؤلات

[1] **محمود الميناوي، "أفريقيا: ليبيا سؤال الهوية ومخاطر التقسيم"، مجلة فكر أونلاين، 29 أغسطس 2014.**

[2] تعتمد الدراسة على مصطلح "ليبيا" لتسّهُل الفكرة العامة للقارئ ولأنها متعارف عليها تاريخياً؛ لأن ليبيا كانت معروفة بأسماء ولايات تابعة للدولة الإسلامية وهي (برقة وطرابلس). بينما استعمل اسم ليبيا لأول مرة خلال الفترة الرومانية، ثم أعادت الحكومة الإيطالية استخدامه كنوع من التبرير الإيديولوجي، أو كما يَدَّعي موسوليني من أنه لا بد من إعادة الإمبراطورية الرومانية إلى حوض المتوسط. للمزيد **انظر: علي عبد اللطيف حميدة، المجتمع والدولة والاستعمار في ليبيا، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1998)، 24.** فأصلُ تسمية ليبيا يعود إلى القبائل اللُوبية التي هاجرت من فلسطين، إلا أنه اندثرت كلمة اللوبي من الشمال الأفريقي بعد الفتح العربي حتى أعاد الاسم إلى العربية أحمد زكي في كتابه "قاموس الجغرافية القديمة"، نقلاً عن الفرنسيين في أواخر القرن 19 م. فيمكن القول: إن الكلمة أُعيد استنباطها من قبل الغرب، وعندما اتصل المستعمرون بالبلاد قَبِلَ الأهالي الاسم الجديد باعتباره جزءً من ماضيهم، في هذا الصدد انظر: **محمد بازامه، ليبيا هذا الاسم من جذوره التاريخية، (بنغازي: مكتبة قورينا، ط2 1975)، 95.**

المرتبطة بالأُسس التي شكَّلت الكيانَ الوطني في ليبيا، ورصد التأثيرات الكولونيالية في المجتمع الليبي وبناء الهُوية الوطنية الجامعة في ليبيا؟

تنقسم الدراسة إلى مبحثين؛ يتناول المبحث الأول دراسة البيئة الاجتماعية والثقافية والبدايات الأولى لنشوء الإصلاح السياسي ومقدمات التغلغل الإيطالي في ليبيا. أما المبحث الثاني يتناول مرحلة الاستعمار وتأثيراتها في نشوء هوية وطنية وكيان دولتي لليبيا.

المبحث الأول

ليبيا: الخصوصية الاجتماعية والظاهرة الاستعمارية

يتحدث الأكاديمي اللبناني الدكتور يوسف الشويري عن أزمة الهوية الوطنية في مراحل الصراع والاستعمار، وكيف يعيش أبناء الوطن الواحد حالة من التأزم الداخلي على المستويات جميعها، ويخضعون لممارسات المستعمرين الذين يعتمدون سياسة عنصرية لتمزيق البلاد المستعمَرة، ومحاولة إضعاف البناء الداخلي للمجتمعات، فتطفو الهويات الفرعية "الفائضة" على الهوية الوطنية، غير أن هذا الحال، دفع المثقفين والنخب الوطنية للبحث عن هوية جامعة لأبناء الوطن الواحد إما من خلال روابط قومية أو قِطرية أو روحية، فيقول الدكتور الشويري: "إن الأزمات تدفع الشعبَ للبحث عن الهُوية المفقودة"[3].

[3] يوسف الشويري، سمنار "التاريخ والذاكرة"، الدوحة، جامعة قطر، 17 مارس 2016.

أولاً. خصوصية ليبيا: أخوَّة القبيلة والرابطة الدينية

إن نشأةَ كيان الدولة في ليبيا في النصف الأول من القرن العشرين جرى وفقَ تحولاتٍ على مستوى الشروط الاجتماعية والاقتصادية الداخلية، ولكن الأهم هي التحولات والتأثيرات الخارجية التي عصفت بالبلاد. فقد كانت العوامل الفيزيائية في ليبيا تختلف عن جاراتها في شمال أفريقيا. ولكن، كيف يُمكن أن نفهمُ دورَ القبيلةِ والدينِ في هذا البناء؟

إن جغرافية ليبيا أخذت أبعاد تاريخية مختلفة، ففي بلاد مساحتها أكثر من مليون ونصف كيلو متر مربع تمتد الصحراء على نحو 80 % ويلتقي البحرُ بالصحراءِ أحياناً (سَرتْ)، ونشأت أغلب مناطق الاستقرار في الواحات على طول الساحل البحري أو في وسط الصحراء، مما خلق علاقاتٍ معقدةٍ بين البدو والفلاحين وسكانَ المدن، فضلاً عن ذلك، فإن النسيج الاجتماعي شكل مزيجاً متنوعاً فيه العرب واليهود والأتراك والأمازيغ وغيرهم[4].

1. نمطان للمجتمع في ليبيا: القبلية والمدينية

شكّلت القبيلة ثقلاً سياسياً واقتصادياً واجتماعياً في ليبيا، فيُلاحظ أن عدد سكان المدن كان قليلاً (في طرابلس عام 1850 بلغ عدد سكانها 12,000 نسمة)[5]. وانطلاقاً من الخصائص الجغرافية للبلاد كانت أغلب المدن الليبية تتركز على ساحل المتوسط باعتبارها مراكز إداريةٍ وتجاريةٍ وعسكرية.

كان العمل الرئيسي لغالبية السكان في ليبيا قبل الاستعمار الرعي المتنقل والزراعة الواحية، ويتركز الشطر الأعظم من الأراضي الصالحة للزراعة والمراعي بأيدي الطبقة الأرستقراطية العشائرية ورجال الطرق الصوفية، وعماد العلاقات بين سكان المدن والرُعاة وسكان الواحات الزراعية تقوم على المقايضة التجارية والتحالفات الاجتماعية[6]، فقد كانت القبائلُ تعتمد على الاكتفاء الذاتي من المراعي والتجارة الصحراوية مما ساهم في تقوية الروابط الدموية، وأدى لصراع دائم وتوسُّع قبائل على حساب أخرى فرضاً للهيمنة والنفوذ، واضطر تُجار القوافل الصحراوية لدفع الأُعطيات للقبائل

[4] المولدي الأحمر، الجذور الاجتماعية للدولة الحديثة في ليبيا، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ط1 2009)، 84، ويمكن النظر للملحق رقم (1).

[5] علي عبد اللطيف حميدة، المرجع السابق، 36. راجع الملحق (2).

[6] نيكولا بروشين، تاريخ ليبيا من نهاية القرن التاسع عشر وحتى 1969، ترجمة: عماد حاتم، (بيروت: دار الكتاب الجديدة المتحدة، ط2 2001)، 57 ـ 58.

لتوفير الحمايةِ خارج المدن؛ بسبب عدم قُدرة الدولة المركزية في المدينة على تأمين التجارة الصحراوية بين طرابلس وبلاد السودان[7].

2. الدعوة السنوسية: رابطة اجتماعية روحية

كان ضعف البلاد وتفشي الجهل بين القبائل وضياعِ نفوذ الحكومة المركزية في دواخل ليبيا أدى لإشغال الناس بأمور دنياهم، وقاموا بأعمال النهب وقَطعِ طُرق القوافل ووقعت صراعات طويلة[8]، فكان ذلك أبرز أسباب انطلاق الدعوة السنوسية من الصحراء ومناطق الواحات، وظهرت السنوسية كإحدى أهمِ الحركاتِ الدينية الإصلاحية في شمال أفريقيا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي[9].

اختار السنوسي مواقع إستراتيجية لبناءِ الزوايا السنوسية بين الأوطان القبلية أو على مرتكزات طرق التجارة، وتحولت الزوايا لمراكزِ استقطابٍ اجتماعي واقتصادي، وتوسعت على حساب أراضي القبائل. واتبع السنوسي سياسةَ تعليم وتربية الأطفال الصغار، والتدخل في حل النزاعات القبلية. ونجحت السنوسية حيث أنها بُنيت بعيداً عن المركز العثماني وعلماء طرابلس (كان علماء طرابلس ينتمون للمذهب المالكي الحضري، ونظروا للسنوسية كحركة بدوية). وقد لقيت السنوسية صدىً بين القبائل (الكَفرة -سَرت). وعندما توفي محمد بن علي السنوسي (المؤسس) كانت أعداد الزوايا (52) زاوية في الصحراء والمناطق الساحلية الليبية، ووصلت عام 1920 إلى 146 زاوية في جميع أنحاء البلاد[10].

استطاعت السنوسية أن تخترق فوارق المجتمع من الأعراق والإثنيات والانتماءات القبلية لقيامها بدور الوساطة وتحولها من حركةٍ طُرقية إلى ظاهرة اجتماعية -سياسية، أما فيما يتعلق بعلاقة الحركة السنوسية بالدولة العثمانية، فقد اتسمت بالشك المتبادل (في البداية)؛ لانتقاد السنوسي التهاون العثماني في مواجهة التغلغل الأوروبي في ليبيا، وكما أن ادعاء شيخ السنوسية النَسبَ الشريف جعل العثمانيون ينظرون للحركة على أنها تحدٍ لسيادتهم (المعنوية) في شمال أفريقيا[11].

---

[7] المولدي الأحمر، المرجع السابق، 90.

[8] محمد فؤاد شكري، السنوسية دين ودولة، (القاهرة: دار الفكر العربي، 1948)، 26.

[9] أسس الحركة السنوسية محمد بن علي السنوسي (ت: 1859)، وقد نشأ صاحب الدعوة في بيت علم ودين في الجزائر، وهدف من حركته نشر الدين الصحيح وتوحيد المسلمين في العالم. وقد درس الطرق الصوفية والمذاهب الفقهية، وجعل مركز الحياة هي الزوايا السنوسية، انظر: بروشين، ليبيا حتى 1969، 11.

[10] حميدة، المرجع السابق، 129 ـ 132.

[11] حميدة، المرجع نفسه، 125. انظر: الملحق 3.

وبالرغم من ذلك، فإن الباب العالي قرَّر استقطاب السُنوسية بعد أن رأى قوتها في دواخل البلاد، فكان أول اعتراف رسمي هو فرمانٌ أصدره السلطان عبد المجيد الأول عام 1856 أُعفيت بموجبه الزوايا السُنوسية من الضرائب، واعتُبرت حِمىً يلجأ الناس إليها، كما ظل السُنوسيون يعترفون بالدولة العثمانية عاصمة للمسلمين حتى مجيء الاستعمار[12].

يمكن القول إن السنوسية أصبحت قاعدةً شرعية وتنظيمية اجتماعية، وهو ما سيجعلها تلعب دوراً بارزاً في مرحلة الاستعمار الإيطالي، وإن ما جرى في ليبيا على يد السُنوسية يمكن تفسيره عند ابن خُلدون بقوله: "الدعوة الدينية تزيد الدولة في أصلها قوة على قوة العصبية"[13]، ولم تكن السنوسية هي العامل الوحيد الذي ساهم في تنامي الأفكار الوطنية بل ساهمت الإصلاحات العثمانية كذلك الأمر، فما هو دور الإصلاحات العثمانية في ليبيا؟

3. الإصلاح العثماني وبروز فئة شبابية مثقفة في ليبيا

انتزع البابَ العالي السُلطة من ولاته القرمانليين (ولاية طرابلس) ووضعها تحت حكمه مباشرة عام 1835م، وقام بإدخال جملةٍ من الإصلاحات في الحياة السياسية والاقتصادية للبلاد، فأدخل نظام المجالس الإدارية والإصلاحات القضائية والتعلمية ومحاكم الأحوال الشخصية والجنايات، وذلك لتجريد الزعماء المحليين من صفةِ الوساطة ومَنّحها لممثلي الباب العالي[14].

أدت حركة التحديث والإصلاح العثماني إلى ظُهورِ طبقة جديدةٍ من الناشطين السياسيين الليبيين المنخرطين بالمشروع التحديثي العثماني، حيث تكونت فئةٌ مثقفة من أعضاء مجلس المبعوثان العثماني وخريجي المدارس الرشدية الحديثة، فأدخلوا أدوات عمل جديدة للبلاد، حيث أنشأ شُبَّانُ طرابلس جمعياتٍ سياسية وعلمية منها جمعية فوائد ونصائح خيرية في طرابلس في 1882. لكن عندما شعر العثمانيون والقناصل الأوروبيين بخطرها على مصالحهم عمدوا لإغلاقها، وكان أبرزَ ما جاء في أهداف الجمعية ـ لأول مرة في تاريخ ليبيا ـ ذِكّرُ حدودِ الوطن كوحدةٍ سياسية[15].

[12] نيقولا زيادة، ليبيا من الاستعمار الإيطالي حتى الاستقلال، (القاهرة: المطبعة الكمالية، 1958)، 76.

[13] ابن خلدون، المقدمة، تح محمد تامر، (القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، ط1 2005)، 157.

[14] المولدي، المرجع السابق، 265 .

[15] المولدي، المرجع السابق،292 .

جاءت الإصلاحات العثمانية في ليبيا بمثابة تهديد اجتماعي عندما اتجهت إلى المركزية وتكوين بيروقراطية حكومية في المدينة تتعامل مع الرعية كأفراد لا كجماعات مما أضعف دور الزعامة المحلية[16]، ولكن في الحقيقة أعطت الإصلاحات العثمانية النُخب الليبية هُويةً حديثة؛ فالحياة في ظل الدستور والمشاركة البرلمانية للشباب الليبيين في المبعوثان تركت أثراً واضحاً في تنامي الأفكار الوطنية التي ستلتقي مع الأفكار السنوسية الجهادية لمواجهة الاستعمار والعمل على تكوين الهُوية الجامعة لأبناء ليبيا.

يمكن القول إن ليبيا قبل الاستعمار الإيطالي كانت موزعة على ثلاث قوى رئيسية تتزعمُ المشهدَ في داخل البلاد الذي أعطى ليبيا تلك الخُصوصية، وهي كالآتي:

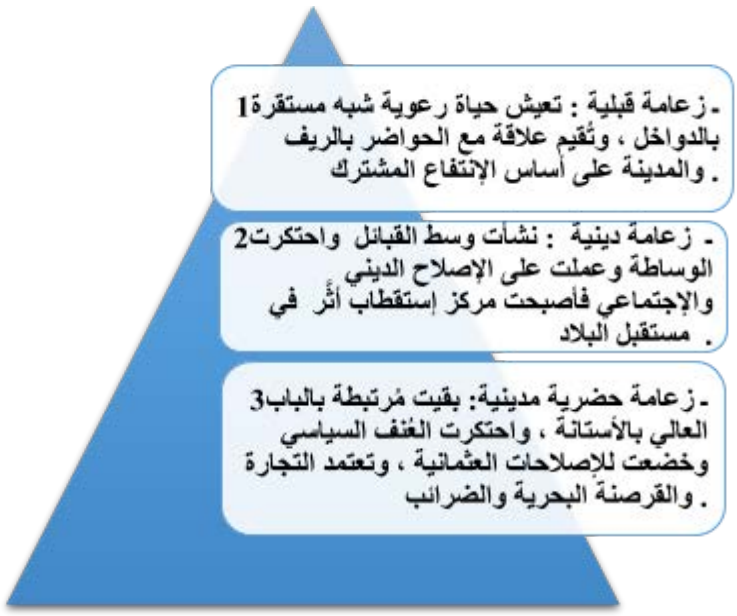

[16] عبد العزيز الدوري، التكوين التاريخي للأمة العربية " دراسة في الهوية والوعي "، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ط5 2009)،151.

ثانياً ـ الظاهرة الاستعمارية في ليبيا "النموذج الإيطالي"

عَزَّزت التطورية الاجتماعية رغبةَ الإنسان الأوروبي في القرن 18م في ترتيبِ سائر الشعوب الأُخرى في سُلَّمِ التطور الذي يحتل الأوروبي قمة هرمه، وقد وجدت أوروبا في بعض التنظيرات الفلسفية مرتكزاً للاستعمار تحت شعار تمدين العالم المتخلف (هيجل)[17]. ونشأت فكرة الاستعمار والاستيطان نتيجةً للتوسع الإمبريالي وخاصة في المناطق القريبة من الدول الاستعمارية. ويُميز فيلد هاوس (Fieldhouse) بين الاستعمار كونه استغلال مجتمع من جانب أجنبي ووُكلائه لخدمةٍ مصالحهم الخاصة وبين الاستيطان الذي يُقصدُ به إعادة إنتاج النماذج الأوروبية لجميع المستوطنين في أراضي جديدة يزعُم أنها غير مأهولة[18].

كانت ليبيا منذ القديم هدفاً للتغلغل الإيطالي، فمنذ عام 1816 أقامت جمعية الفرنسيسكان في طرابلس أول مدرسة تبشيرية للبنين باللغة الإيطالية[19]. وخلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر أحاطت ظروفٌ متعددة في إيطاليا لتنزل إلى الميدان الاستعماري، ومن أهمها الظرفية القومية التي كانت تتحكم في سياسة الدولة الخارجية بعد أن توحدت عام 1870 م، ومن جهة أخرى اقترنت بالظاهرة الرأسمالية التي جاءت وليدة الثورة الصناعية والبحث عن أسواق خارجية[20]. ومنذ أواخر القرن التاسع عشر، أخذت الصُحف الإيطالية تعكسُ دعاوى التوسع وتصف ليبيا وطرابلس بـ "طرابلس الجميلة". إلا أن العامل الأبرز الذي ساهم في الغزو هي المشكلة الفِلاحية في الجُنوب الإيطالي، ففي عام 1890 قادَ الاتحاد في إيطاليا بُرجوازيةُ الشمالِ الرأسمالي، وقاد ثقل الجنوب والجُزر الإيطالية مُلّاكُ الأراضي الإقطاعية[21].

لقد عملت إيطاليا بكل الوسائل لتَضع يدها على طرابلس وبرقة الواقعتين قبالتها والفاصلتين بين الممتلكات الاستعمارية لإنجلترا وفرنسا في شمال أفريقيا. ومنذ عام 1904، بدأ العملاء الإيطاليون يتوجهون إلى ليبيا تحت أسماءٍ مُستعارة، فكان منهم التُجار وعُمال البناءِ وصانعو الأسلحة، وقاموا بجمع المعلومات عن المجتمع وإيصالها إلى القنصلية الإيطالية في طرابلس. وفي عام 1905 تم إنشاء فرع "بانكو

[17] صلاح الجابري، الاستشراق: قراءة نقدية، (دمشق: دار الأوائل، 2009)، 19 -20.

[18] 19 إيليا زريق، "الصهيونية والاستعمار"، مجلة عُمران للدراسات الاجتماعية، العدد 218، (2014)، 9.

[19] 20 نيكولا بروشين، تاريخ ليبيا في العصر الحديث، ترجمة عماد حاتم، (بيروت: دار الكتاب الجديدة المتحدة، 2001)، 383.

[20] عبد المنصف البُوري، الغزو الإيطالي لليبيا دراسة في العلاقات الدولية، (القاهرة: الدار العربية للكتاب، 1983)، 17 ـ 18

[21] حميدة، المرجع السابق، 147.

دي روما" بدعمٍ من الفاتيكان؛ لأغراض دينية واقتصادية، وأعلنوا أن هدفه تنمية الاقتصاد الليبي، وافتُتحت الوكالات التجارية للمصرف في اثني عشرة مدينةٍ ليبية[22]. وكانت سياسَةُ المصرفِ إقراض الأهالي وشراءِ الأراضي الخصبة مما جَعلهُ مركزاً للنشاط السياسي والاقتصادي وللجاسوسية في وقت ضعف فيه الأتراك وأهملوا البلاد، وكما قامت الدول الأوروبية بعقد اتفاقات أطلقت أيادي إيطاليا في ليبيا لقاءَ ما حصلت عليه تلك الدول في أفريقيا[23].

هكذا استطاعت إيطاليا في أواخر القرن التاسع عشر أن تُكيّف وتُهيأ الظروف المناسبة للاستعمار من خلال:

- توحيد البلاد الإيطالية عام 1870م
- دخول إيطاليا في نادي الدول الإمبريالية
- التغلغل الإيطالي السلمي في ليبيا.

وكل ذلك أدى إلى تفرُّد الطُلّيانِ في حُكمِ ليبيا، وإزاحةِ كل القوى الاستعمارية المنافسة من طريقهم.

[22] بروشين، ليبيا حتى 1969، 105، 106.

[23] نيقولا زيادة، المرجع السابق، 80.

المبحث الثاني
سياسة الاستعمار الإيطالي وبروز هُوية وطنية في ليبيا

أولاً. سياسة الاستعمار الإيطالي في ليبيا

أراد الإيطاليون وضع الدولة العثمانية والدول الاستعمارية الغربية تحت الأمر الواقع، فقام ملك إيطاليا بتوقيع مرسوم ملكي في نوفمبر 1911 أعلن فيه وضع طرابلس وبرقة تحت السيطرة التامة المطلقة لمملكة إيطاليا[24].

وفي المقابل، دخلت تركيا منذ الانقلاب الدستوري للاتحاديين وعزل السلطان عبد الحميد الثاني عام 1908 - 1909م، مرحلة جديدة من تاريخها حيث بدأت تسودها النزعة العِرقية (الطُورانية)، وبدأت بالتخلي عن سيادة البلدان الإسلامية التي كانت تحكُمها مما أيقظ روح القومية العربية[25]. وفي نهاية الصراع على المجال، عقدت إيطاليا وتركيا المفاوضات الرسمية في لوزان (الأولى) بسويسرا عام 1912؛ تضمنت إنهاء الحرب، وتعهدت تركيا بسحب قواتها من طرابلس وبرقة ووضعها تحت السيادة الإيطالية. وقد جاء في الاتفاق: "يَنشُر السلطانُ فرماناً يمنحُ أهالي ليبيا الحُكم الذاتي"[26]، ولذلك بدأت مرحلة جديدة من حياة الليبيين، حيث استغلوا هذا البند للانفراد بكفاح المستعمر، واللافت للنظر عدم تأثر الليبيين بعملية الصلح (لوزان)، وهذا ما ستثبته حركةِ الكفاح الوطني ضد الغزو الإيطالي.

انقسمت السياسية الإيطالية لمراحل حسب أهدافها، حيث كانت أهداف الطليان (1911 - 1922) توسعية مصلحية استعمارية غير أن تلك السياسة تحولت مع الفاشيست (1922 -1943) إلى هدف رئيسي وهو إحياء الإمبراطورية الرومانية القديمة على أراضي ليبيا واعتبار ليبيا جزءاً من الأراضي الإيطالية (الرومية)[27].

وقد بدأت الفاشية باستلام غرسياني الحُكمَ العسكري في برقة، وتنصيب الحاكمُ الجديد المحاكم الصورية (الطيارة)، وجيء بالكثير من شيوخ الزوايا وأعيان القبائل،

[24] محمد صالح منسي، الحملة الإيطالية على ليبيا، (القاهرة: دار الطباعة الحديثة، 1980)،129.

[25] Lisa Anderson, Religion and State in Libya: The politics of Identity (the Annals of the American Academy of political and social science, 1986) p.64

[26] منسي، المرجع السابق، 159 ـ 161.

[27] شُكري، المرجع السابق، 328.

وبكل من تربطه صلات بالمجاهدين في طرابلس وبرقة وسِيقوا إلى مراكز التعذيب والاعتقال[28].

بذل الإيطاليون جهوداً جبارةً للقضاء على اللغة العربية باعتبارها الرابطة القوية لأبناء ليبيا، وأغلقوا الكتاتيب والزوايا، وأكثروا من إقامة دور الدعارة وبناء كنائسٍ كثيرة في البلاد[29]. وبلغ الاستهتار بالشعور الإسلامي مبلغاً عظيماً بين إرساليات التبشير المنبثة بين الأهالي، وصدرت الأوامر المشددة على الخطباء بالدعاء لملك إيطاليا على المنابر[30].

إذن، عمل الاستعمار الإيطالي بسياسته الهمجية على طلينة البلد، وقد ذهب ضحية الفاشية الكثير من سكان طرابلس وبرقة، فمنهم من شُرد ومنهم من سيق إلى السُجون ومجاهل الحبشة، وتم إرسال خمسين ألف عائلة إيطالية للاستيطان في مصراته، وفتح باب التجنيس الإيطالي لأبناء ليبيا[31]. كما استباحت السلطات العسكرية الإيطالية آلاف القطع الفلاحية لليبيين، فصادرت خلال (1922 -1925) في منطقة الزاوية وحدها 900 قطعة أرض خاصة، بالإضافة لحوالي 70.000 هكتار مُحبسة على الزوايا السنوسية في برقة[32]. وبالتالي: ما أَثرُ السياسة الاستعمارية الإيطالية على الواقع الاجتماعي الوطني الليبي؟

توحَّد أهالي ليبيا تحت راية واحدة من خلال المشاركة الجماعية في حركة الجهاد للدفاع عن الأرض والدين والعرض، وشكلوا الجمعيات والأحزاب الوطنية التي لعبت دوراً فكرياً وسياسياً بارزاً. وعلى الرغم من سياسة الإفراغ الديموغرافي إلا أن ذلك أرسى دينامية جديدة حدثَ بموجبها انزياحاً في الثقل الاجتماعي والسياسي للسكان من الأرياف إلى المدن، إذ أدخل الإيطاليون للمُدن الليبية تقاليدَ العمل النقابي والمؤسسات الخدمية والمالية الحديثة، ليتوافق مع نموذج المستوطنين الصاعد وإدارتهم للبلاد، فأدت تلك السياسة إلى الانزياح الزعاماتي (القبلي) نحو نمط سياسي جديد مركزه المدينة التي تزخر بالأمان والاستقرار[33].

---

[28] محمد الطيب الأشهب، عمر المختار، (القاهرة: مطبعة محمد عاطف، 1957)،127.

[29] شُكري، المصدر نفسه،333.

[30] علي محمد الصلابي، الحركة السنوسية في ليبيا، (بيروت: دار ابن حزم، 2013)، 630، 632.

[31] بشير السعداوي، فظائع الاستعمار الإيطالي الفاشي في برقة وطرابلس، (طرابلس، جمعية الدفاع عن طرابلس وبرقة، د.ت)، 20 ـ 22.

[32] المولدي، المرجع السابق، 348.

[33] المولدي، المرجع السابق، 356.

ثانياً: الظاهرة السياسية في ليبيا "المقاومة ونشوء الهُوية الليبية"

تحولت الرابطة القبلية الليبية في بداية مرحلة الاستعمار الإيطالي إلى رابطة سيسولوجية -دينية، حيث فرضت ذاتها في تلك الفترة العصيبة من تاريخ البلاد الليبية، وكان ضعف البنية السياسية (الحضرية أي المدن) هو ما شجع على بقاء القبيلة كعاملٍ وَحَّدَ المقاومة ضد الغزو الاستعماري.

وعندما غزت إيطاليا ليبيا كان يسود البلاد نوع من التناحر الداخلي إلا أن الحركة السنوسية استطاعت تنظيم المقاومة ضد العدو الطارئ[34]، فكان حضور السُنوسية لمجالس الحرب قد شكل فارقةً مهمة، فقد كتب أحمد العيساوي لزملائه مشايخ الزوايا ليستنفروا الأهالي للجهاد تلبية لنداء الوطن، فتدفق المجاهدون حتى قُدّر عددهم بثمانين ألف مجاهد حسب المصادر التاريخية[35]، فأضافت السُنوسية للأخوة القبلية رابطة الأُخوة الدينية، لتصبح فيما بعد هوية مشتركة تحت مسمى "الأُخوة الوطنية".

استطاعت السنوسية بفضل ما كان لها من تقاليد راسخة في الإدارة الاجتماعية والسياسية أن تُشيّد أركان الحكومة القوية في البلد البرقاوي (المنطقة الشرقية من ليبيا)، فأدرك الطُليان من أول الأمر أنهم أمام قوةٍ منظمة لابد من الاعتراف بحقوقها لضمان الهدوء في برقة في وقت كان فيه الطرابلسيين منقسمين على أنفسهم لا يعترفون بزعامة موحدة، بل سادت زعامات محلية (رمضان السويحلي - سليمان الباروني)[36]. فكانت ليبيا مُقسمة إلى ما يشبه المناطق الفيدرالية -آنذاك -حيث نجد الطرابلسيين كزعماء محليين، بينما نجد في برقة الدعوة السنوسية وقد التف حولها المجاهدين، وبات كُل فريقٍ يقاتل المستعمر في جبهة منعزلة عن الأخرى.

نتيجة التكلفة الباهظة لإيطاليا في ليبيا وظروف الحرب العالمية الأولى عقدت هُدنة مع السنوسيين (اتفاق عكرمة) تم الاعتراف بالسيادة السنوسية بدواخل البلاد، والسيادة الإيطالية بالسواحل وذلك في أبريل عام 1917[37]. ومن ثم عُقد مؤتمر الرجمة

---

[34] Edward Evans - Pritchard, The Sansui of Cyrenaica (Oxford: at the Clarendon press,)1949).p.104

[35] الأشهب، المرجع السابق، 8 ـ 9.

[36] شكري، المرجع السابق، 221

[37] Pritchard, P. 124.

انظر: الملحق (5).

مع السيد إدريس السنوسي عام 1920م، اعترفت إيطاليا بالإمارة السنوسية، وهي أول حكومة تنشأ في البلاد، وكان هدف الطليان تهدئة خواطر شيوخ القبائل وتنظيم إدارة برقة داخلياً[38].

مرَّت تجربة العمل السياسي الوطني في ليبيا بمراحل وتعقيدات كثيرة، ونتيجة المصاعب التي واجهت الليبيين في التفاهم مع الطيان عقدوا عدَّة مؤتمراتٍ وطنية، وكان في أولها إعلان الجمهورية الطرابلسية عام 1918، ولكنه بقي قاصراً على المنطقة الغربية (طرابلس)، وتلاه مؤتمر غريان عام 1920، حيث اتجه تفكير زعماء حزب الإصلاح الوطني مثل عبد الرحمن عزام نحو غاية توحيد القطر الليبي، وقرر المؤتمر العودة إلى خطة الجهاد بعد فشل الطُرق الدبلوماسية مع الحكومة الإيطالية[39].

ويمكن القول إن مؤتمر غريان كان أول مؤتمر وطني هدف إلى توحيد القطرين (طرابلس -برقة)، وأتى بعده ميثاق سَرت عام 1922م، وبنود اتفاق سرت كانت: "يرى الطرفان أن مصلحة الوطن وضرورة الدفاع ضد العدو المشترك تقضي بتوحيد الزعامة على البلاد، ولذلك يجعلان غايتهما انتخاب أمير مسلم تكون له السلطة الدينية والمدنية داخل دستور ترضاه الأمة"[40]، وهنا يمكن أن نُلاحظ أن بنود اتفاق سَرت كفلت إنشاء إمارة دستورية، وتحقيق المبادئ الوطنية في ليبيا.

ظهرت فكرة الوطنية واشتراك أبناء الوطن بروابط وحقوق وواجبات مشتركة في ليبيا، ومع وجود جذور أدبية لفكرة الوطن في التراث، إلا أنها أُعطيت مدلولاً سياسياً بتأثير الأفكار الجديدة الخارجية، واستجابة لمشاكل داخلية مثل أوضاع أهل ليبيا في مستوى أدنى من عناصر خارجية مسيطرة[41].

حارب الليبيون الاستعمار الإيطالي لأكثر من ربع قرن متواصل، ولم تُقَدم لهم أي مساعدات فعلية، ولم تكن لهم وسائل دعائية، ولم تصل أخبارهم إلى إخوانهم العرب. حيث استطاعت إيطاليا شراء الكثير من الأقلام والصحف العربية، إلا أن وحدة الإسلام والهدف السامي لليبيين كانت رابطةً جابه بها أهل البلاد

[38] الأشهب، المرجع السابق، 52.

[39] شكري، المرجع السابق، 255.

[40] محمد المقريف، ليبيا من الشرعية الدستورية إلى الشرعية الثورية، (القاهرة: دار الاستقلال، 2008)، 41.

[41] الدوري، المرجع السابق، 143 ـ 144.

المستعمِرين[42]. وهذا ما اعترف به غرسياني في مذكراته، فأشار إلى ضراوة المقاومين الليبيين ووطنية قائدهم الكبير عمر المختار، بقوله: " كان عمر المختار كرئيس عربي، مُؤمن بقضية وطنه"[43].

تنوعت أشكال المقاومة للاستعمار الإيطالي، فأقيمت الخُطب السياسية لشحذ الهمم مثل خطابات بشير السعداوي أحد الزعماء الوطنيين في تحديه للاستعمار، حين قال: "إن شعبنا لن يموت... ولقد جربت كل ما لديك من الوسائل الاستعمارية لإخضاع شعب طرابلس -برقة، ولكن هذا الشعب لم يرضخ بل ظل حفيظاً على مبادئه الوطنية والقومية ولا يُخيفه عذاب"[44]. وفي نفس الوقت، برزت المقاومة الفكرية في كلمات شاعر الوطن أحمد رفيق المهدوي (أحد قادة الحركة الوطنية)، وهو ينادي وطنه الذي خرج منه مُكرهاً عام 1926، فيقول:

يا أيها الوطن المقدس عندنا شوقاً إليك فكيف حالك بعدنا؟[45]

شكل الدين الإسلامي ورابطة العروبة والزوايا السنوسية والنضال الوطني المشترك بين الليبيين الإطار التنظيمي للوطنية الليبية في ظل الاستعمار الإيطالي، مما قاد البلاد إلى الاستقلال وتشكل فكرة الهُوية الوطنية في أذهان الليبيين.

وتجدر الإشارة إلى مشاركة المجاهدين العرب والمسلمين في حركة المقاومة الوطنية الليبية من أجل التحرير، ويذكر هنا يوسف الشويري: "عندما احتل الأوروبيون شمال أفريقيا ازداد الإصرار على التحرير واندمج التيار الإسلامي بالحركات الوطنية المحلية، ومن ثم التقى التيار العروبي بالنهضات العربية الأخرى، وما إن انتصف القرن العشرون حتى كنا على أبواب إحراز النصر النهائي وتحقيق الاستقلال التام"[46].

وبذلك برزت أشكال مختلفة للكفاح الليبي، وظهرت الجمعيات السياسية والفكرية، إذ تأسست جمعية الدفاع الطرابلسي -البرقاوي في الشام عام 1928 من قبل القيادات الشبابية الليبية المثقفة، وقامت بنشاطٍ واسعٍ في التعريف بالقضية الليبية في الدوائر العربية والإسلامية، ونشرت عام 1929 ما وصفته الميثاق الوطني

[42] الأشهب، المرجع السابق، 175.

[43] رودولفو غرسياني، برقة الهادئة، ترجمة ابراهيم عامر، (مصراته: الدار الجماهيرية، ط4 1998)،245.

[44] السعداوي، المرجع السابق، 29.

[45] أحمد رفيق المهدوي، ديوان شاعر الوطن الكبير، (بنغازي: المطبعة الأهلية، 1962)،69 ـ 70.

[46]يوسف الشويري، بين النص والهامش " دراسة في التاريخ والقومية والدين"، (لندن: دار رياض الريس)، 109.

للشعب الليبي الذي تضمن: "تأليف حكومة وطنية ذات سيادة قومية لطرابلس وبرقة يرأسها زعيم مسلم تختاره الأمة وسن دستور للبلاد"[47].

كذلك قدمت القبائل الليبية مجتمعة آلاف الشهداء الذين أكدوا انتمائهم إلى الوطن والدين، وحتى في مرحلة ضعف حركة المقاومة في ثلاثينات القرن العشرين إثر القضاء على ثورة عمر المختار، وإعلان الحاكم العسكري الإيطالي المارشال بادو ليو الاحتلال الكامل لليبيا بعد عشرين عاماً من المقاومة الليبية (يناير 1932)[48]، فقد استمرت المقاومة بأشكالها المختلفة، وقد خلف المختار الشيخ بورحيل المسماري قائداً للثوار في الجبل الأخضر، واستمرت أشكال المقاومة السياسية التي تُوّجت باجتماع أربعين شخصية ليبية عام 1939، ووقعت على وثيقة تاريخية في بيت الشيخ محمد إدريس السنوسي بالقاهرة، تقرر بموجبها أن يعهدوا إلى الأمير إدريس بالزعامة العامة، ويُعين هيئة مشتركة لتقديم النصح له في كل ما يتعلق في تحرير وطنهم[49].

يمكن أن نلاحظ من خلال حركة المقاومة المستمرة، وما عُقد من مؤتمرات وظهرت من تصريحات تَردُّد كلمة "الوطن"، وقد أثَّر في ذلك التطورات الداخلية في ظل الاستعمار الإيطالي، ونمو حركات الاستقلال الوطنية في البلاد العربية، كما أسهمت الظروف الدولية في ذلك بعدما خسرت إيطاليا الحرب العالمية الثانية، وتولت بريطانيا الإدارة العسكرية لبرقة وطرابلس، وفرنسا حُكم فزان بين 1942 -1951[50].

وقد ساهمت بريطانيا بجملةِ أعمالٍ تحديثية في البلاد الليبية التي دخلتها من افتتاح حوالي 103 مدارس، واستقدمت أساتذة ومدربين من مصر وفلسطين، وكما نظمت الخدمة المدنية، وقامت بتدريب الأهالي على العمل الحكومي، فتشكلت نواة إدارة ليبية مدنية مستقلة، ونظمت دوائر الهاتف والبريد والجمارك[51]، وهي أمور أدت إلى تنامي هجرة القبائل إلى المدن والسواحل الحضرية على المتوسط، حيث تركز الثقل السكاني في المدينة، وساهم بدوره في تسارع عملية الكيان السياسي الوطني في ليبيا.

[47] المقريف، ليبيا من الشرعية الدستورية إلى الثورية، 47.

[48] علي حميدة، المرجع السابق، 189.

[49] المقريف، المرجع السابق، 48

[50] المقريف، المصدر نفسه، 52

[51] نيقولا، المرجع السابق، 128 ـ 129.

لقد شهدت الفترة بين عامي 1942 -1951 تشكل حوالي ستة عشر تنظيماً سياسياً وطنياً ليبيا في طرابلس وبرقة ومصر وسوريا، وكلها تحمل شعارات "الاستقلال، بناء دولة وطنية"[52]. كما نشطت الأحزاب الوطنية الليبية إلى أن تشكلت هيئة تحرير ليبيا برئاسة بشير السعداوي عام 1947 م، والتي نادت بتوحيد برقة وطرابلس وفزان واستقلال ليبيا[53].

يمكن أن نلاحظ بأن معظم فعاليات وأنشطة التنظيمات الليبية دارت حول ثلاثة أهداف: (الاستقلال، الوحدة، تولية الأمير السنوسي)، كما سادة مفاهيم الحُرية والهوية الوطنية والقومية (الشعب -الأمة -الوطن)، مبلورةً نضجاً سياسياً لدى أبناء ليبيا.

وفي عام 1947م، أعدَّ ممثلون عن الشعب الليبي مذكرة قُدمت لاجتماع وزراء الخارجية العرب، وجاءت تتويجاً للجهود الوطنية، وجاء في النص: "ليبيا بلاد عربية تقع بين مصر وتونس وبين البحر المتوسط الصحراء الكبرى، وأقسامها الرئيسية هي برقة وطرابلس وفزان. والليبيون شعب واحد تجمع بينهم روابط الجنس والدين واللغة. والشعب الليبي يطالب بالإبقاء على وحدة بلاده، وتحريرها من الاستعمار وتمتعها بالاستقلال"[54].

واستطاع زعماء الأقاليم وعلى رأسهم الأمير محمد إدريس السنوسي أن يجعلوا من ولادة دولتهم أمراً واقعاً، وذلك حين منح قرار الأمم المتحدة في 21 نوفمبر عام 1949 ليبيا استقلالها الذي تحقق في فبراير عام 1951[55]. وكانت المحصلة التاريخية لنضال الليبيين اختيار شخصٍ يكون رمزاً للبلاد، وهذا هو التعبير الأكثر وضوحاً لملامح التحول السياسي الوطني الجديد (زعيم وطني فوق الزعماء وهوية فوق كل الهويات).

بناءً على ذلك، تأسست المملكة الليبية، وصار لدى الملك السنوسي شرعية احتكار أدوات السلطة (الجيش، القضاء، الضرائب) ضمن القانون العام[56]. وقد اعتمدت الدولة الوليدة على المركزة، ولم يكن لدى السنوسي ثقة بالإيديولوجيات السياسية،

[52] المولدي، المرجع السابق، 370.

[53] نيقولا، المصدر نفسه، 136 ـ 137

[54] نيقولا، المرجع السابق، 158.

[55] محمد المقريف، ليبيا بين الماضي والحاضر، (القاهرة: مكتبة وهبة، 2006)، 485.

[56] المولدي، المرجع السابق، 381 ـ 382.

ومع ذلك بقيت السياسة الداخلية بعد الاستقلال مبنيةٌ على خريطة التحالفات العائلية في حين كانت السياسة الخارجية انعكاساً لمصالح القوى الكبرى[57].

لقد تم اختيار محمود المنتصر أول رئيس للحكومة المؤقتة، وفتحي الكيخيا نائباً له، وعَيَّن الملك إدريس حُكاماً للولايات الثلاثة (طرابلس -برقة -فزان)، وتقدمت المملكة الليبية بطلب انضمام ليبيا للأمم المتحدة وغيرها من المنظمات الدولية، وقد فرح الشعب الليبي باستقلال البلاد، وأنشد شاعرُ الوطن أحمد رفيق المهدوي، قائلاً:

يومٌ سعيدٌ فيه نالت أمةً ... مُلكاً تُمجدُ ذكرهُ الأجيالُ

وإلى حياةٍ حُرةٍ في عيدنا ... هذا تكلل بالنجاحِ نضال

عاشَ المليكُ وشَعّبه وبلاده ... في عزِ دُستورٍ زهاهُ كمالُ[58].

[57] Lisa Anderson .p. 68.

[58] الصلابي، المرجع السابق، 748 ـ 755.

الخاتمة

لعب الانتماء القبلي كقاعدة اجتماعية، والانتماء للدين الإسلامي كقاعدة روحية، دورهما في تداخل المعطيات القبلية بالحضرية والجهوية والاثنية، وقد أثرت جميعها في التغيير السياسي في ليبيا. فضلاً عن ذلك أسهمت التأثيرات الكولونيالية وخاصة الغزو الإيطالي وتدخل دول الحلفاء في تحوُّل الثقل السُكاني من الصحاري الليبية إلى المدن والمراكز الحضرية. كما لعبت حركة المقاومة الوطنية المسلحة والسياسية والفكرية (الداخلية والخارجية) التي قام بها الشباب الليبيين بمساندة أشقائهم العرب ضد الاستعمار وسياسته الفاشية الدور البارز في نشوء الهُوية الوطنية في ليبيا.

وبالرغم من ذلك، استمرت غالبية القوى السياسية في ليبيا بعد الاستقلال الوطني توالي نموذج الزعامة المحلي (التقليدي)، وبقيت الرابطة القبلية مهيمنة على المشهد السياسي في ليبيا بعد اكتشاف الثروة النفطية، وعليه تأسست النوادي القبلية التي قامت عام 1977[59]. وقد استغل النظام السياسي آنذاك (أيام العقيد معمر القذافي) التركيبة السكانية (الجهوية) ليعمل على تهميشِ قبائلٍ ومُحاباةِ غيرها، وأعيد إحياء ما سمي بتحالف الصفوف؛ الصف الفوقي أو البر (المكون من قبائل أولاد سليمان والقذاذفة وورفلة والحطمان وودان وهون)، والصف اللوطي أو صف البحر (يتكون من قبائل مصراته وزليتن والخمس والعبادلة والفرجان والحسون ومعدان والمقارحة)، وصف القبائل (المكون من أولاد بو سيف والمشاشية وجادو وفساطو، والزنتان والرجبان والمحاميد)، وصف شداد (يضم العلالقة والبلاعزة والنوايل، وصف يوسف الشامل لقبائل ورشفانة والعجيلات...). وقد استمر الدور المركزي للقبيلة، وهو ما لاحظناه من المشاركة الكبيرة للقبائل في ثورة السابع عشر من فبراير عام 2011م ضد نظام العقيد معمر القذافي[60]، ومن ثم في تحالفات ما بعد الثورة الليبية بين تيار فجر ليبيا وتيار الكرامة، والتي انتهت إلى قيام جبهتين؛ جبهة أولى تمثلها حكومة الوفاق الوطني متحالفة مع كتائب مصراته والزنتان والجبل الغربي والزاوية والأمازيغ وقبائل التبو وغيرها وتدعمها تركيا عسكرياً وقطر وتونس والجزائر وبعض الدول الغربية سياسياً، وتقابلها جبهة بزعامة اللواء المتقاعد خليفة حفتر ومعه حشود من أتباع النظام السابق ومجندين أفارقة من تشاد والسودان، بالإضافة لقوات مصرية، وخبراء فرنسيين وإماراتيين وأردنيون و روس.

[59] محمد بوطالب، الظواهر القبلية والجهوية في المجتمع العربي المعاصر، (الدوحة: المركز العربي للأبحاث، ط1 2012)،66.

[60] انظر: الملحق 6.

ولقد بدا من تطور الأحداث العسكرية الأخيرة واضطراب الأوضاع في ليبيا بعد أبريل 2019 بأن حالة التفكك المجتمعي والمؤسسي والسياسي والأمني وصلت حدوداً من الانقسام داخل المنطقة الواحدة والقبيلة وحتى العائلة الواحدة، لتظهر تفاصيل تشير لحصول قبائل مثل التبو على وعود تشادية وإسرائيلية بإقامة دولة صحراوية تمتد على صحراء ليبيا وتضم منطقة دارفور السودانية في ظل ضعف سيطرة الحكومات المركزية في ليبيا والسودان على تلك المناطق.

خلاصة القول

من خلال تتبع مراحل نشوء الهوية الوطنية في ليبيا نلاحظ أهمية دراسة التاريخ الاجتماعي والاقتصادي لليبيا قبل البدء بدراسة الواقع السياسي والعسكري الحالي، وضرورة التعمق بتحليل البُنى الذهنية والتركيبة الاجتماعية للتعرُّف على جذور نشأة الهوية الوطنية في ليبيا الذي تحول إلى خاصية جديدة في مراحل الاستعمار، فكانت مرحلة التحدي الأكبر لأبناء ليبيا في انتقال بلادهم من أرضٍ تحكمها زعامات محلية متصارعة إلى بلاد لها هوية عبر حركة التحديث والمقاومة الوطنية معاً، والتي تزعمها الزعماء السنوسيين الذين جمعوا كلَّ الروابط تحت زعامتهم الروحية، ومن جهة أخرى الجهود السياسية في طرابلس التي كان لأسلوبها السلمي الدور في بروز شكل الدولة ولو على المستوى الإقليمي (الجمهورية الطرابلسية) منذ عشرينات القرن العشرين.

إن قضايا المواطنة والانتماء الوطني تعتبر التحدي الأكبر في تاريخ ليبيا في الوقت الراهن، ويكثر الحديث بين المثقفين والنخب الليبية عن فكرة الغياب لتلك الدولة وهشاشة تلك الهوية حتى في مرحلة الاستقلال الأولى في خمسينات القرن الماضي وبأن مركزة الدولة في تلك الفترة وخاصة مع التعديلات الدستورية الملكية (1951 و 1964) شكلت ركيزة أساسية في ضعف الدولة وعجزها عن أداء كامل مهمامها، والتي قادت لعملية انقلاب أيلول/ سبتمبر 1969 (ثورة الفاتح بقيادة العقيد القذافي).

أما اليوم ليس أمام الليبيون إلا طريقين: فإما الاستجابة للحوار وتعزيز المصالحة والبدء بعملية إصلاح سياسي واقتصادي وترميم البنى الاجتماعية أو أن تتحول ليبيا لكيانات مناطقية مهددةً بالفوضى واستمرار الحروب المحلية، ولكن هذه المرة بوجوه جديدة وانتماءات أكثر تعقيداً (قبليةٍ وحزبية). وعلى هذا، ستغدو ليبيا ساحة للصراع المحلي والدول وميداناً مُلائماً لتصفية الحسابات الإقليمية والدولية، وستغدو دولة فاشلة لم تحفظ تضحيات أبنائها ضد الاستعمار والاستبداد. وهنا لا بد أن يتحمل الزعماء المحليين والنخب السياسية وأصحاب الكلمة في ليبيا

مسؤولياتهم التاريخية في هذه المرحلة العصيبة من تاريخ ليبيا، وذلك للانتقال بليبيا من حالة اللا دولة إلى دولة تسودها قيم المواطنة والقانون والمدنية والعيش المشترك بين جميع أبنائها.

وفي نهاية المطاف يمكننا القول: إن أهمية دراسة الظاهرة الهوياتية من أهم الدراسات التي يجب أن تهتم بها المختبرات البحثية لأنها الأساس في فهم التركيبة الاجتماعية والثقافية والدينية في أي مجتمع من المجتمعات اليوم. وهذا ما يفرض علينا كدارسين تناول الظاهرة انطلاقاً من بعدها التاريخي وليس أن ندرس إشكالاتها في الفترة الحديثة، لأن كثير من الباحثين تناولوا أزمة الديموقراطية والليبرالية والحداثة والاستبداد والشعبوية والأزمة الهوياتية على أنها تشكلت بعد خروج المستعمر الغربي من بلادنا في بداية النصف الثاني من القرن العشرين (بعد الحرب العالمية الثانية)، ولكن الحقيقية لكل ظاهرة أصولها البنيوية الاجتماعية والذهنية، وهذه أهم أهداف دراستنا "الكولونيالية وأزمة الهوية في ليبيا".

الملاحق

الملحق 1: خريطة جغرافية لليبيا[61]:

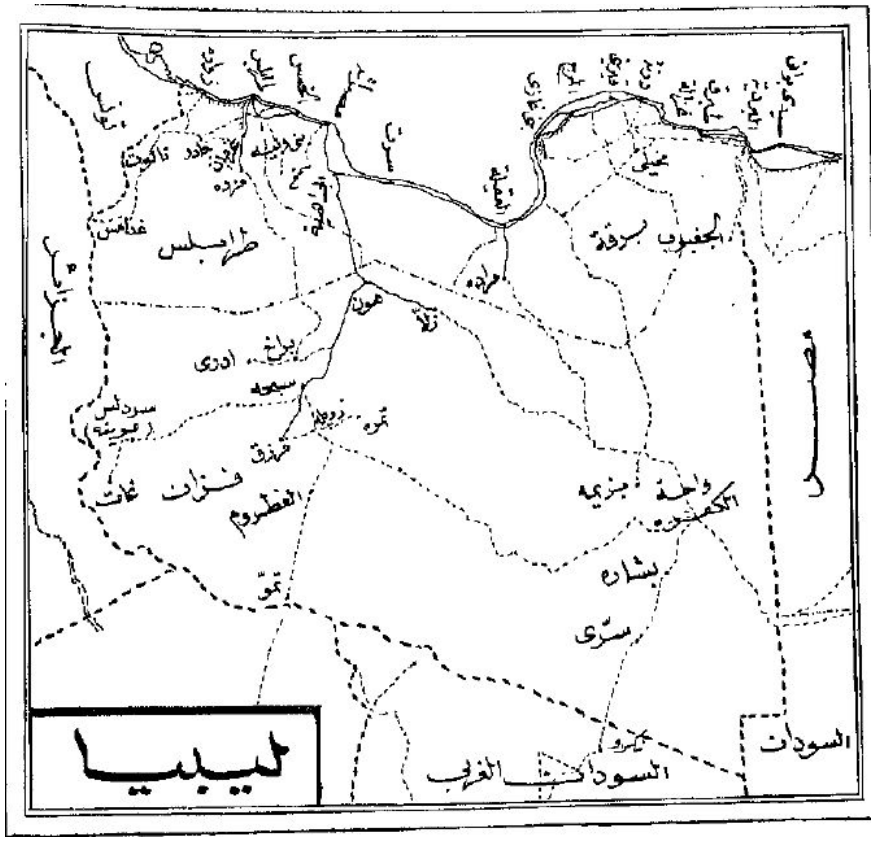

[61] نيقولا زيادة، المرجع السابق، 5.

الملحق 2: توزع القبائل في ليبيا في بداية مرحلة الاستعمار[62]:

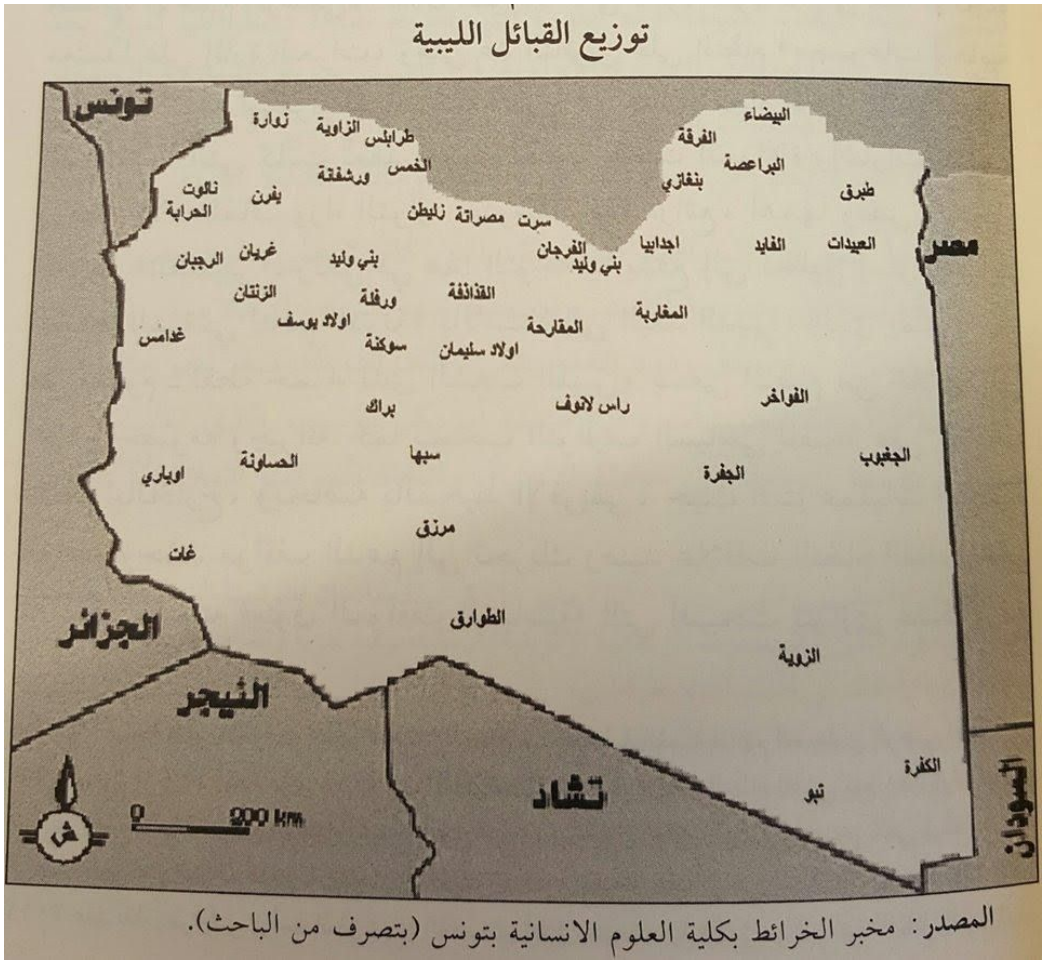

المصدر: مخبر الخرائط بكلية العلوم الانسانية بتونس (بتصرف من الباحث).

[62] بوطالب، المرجع السابق، 67.

الملحق 3: توزع الزوايا السنوسية في ليبيا عام 1920[63]:

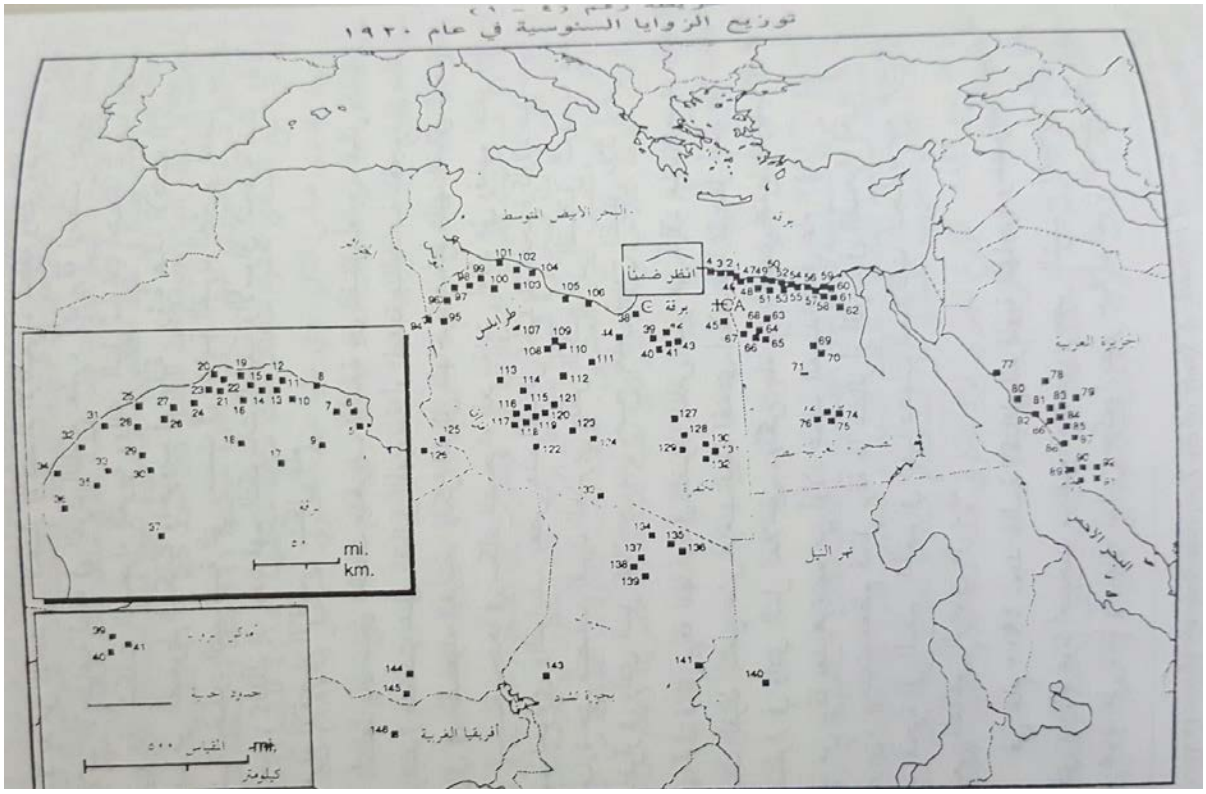

[63] علي حميدة، المرجع السابق، 133.

الملحق 4: خريطة الإمبراطورية الاستعمارية الإيطالية[64]:

[64] انظر الخريطة في: https://en.wikipedia.org/wiki/Italian_Empire

الملحق 5: جدول يُبين نفوذ السنوسية والاستعمار الإيطالي في ليبيا عام 1916[65]

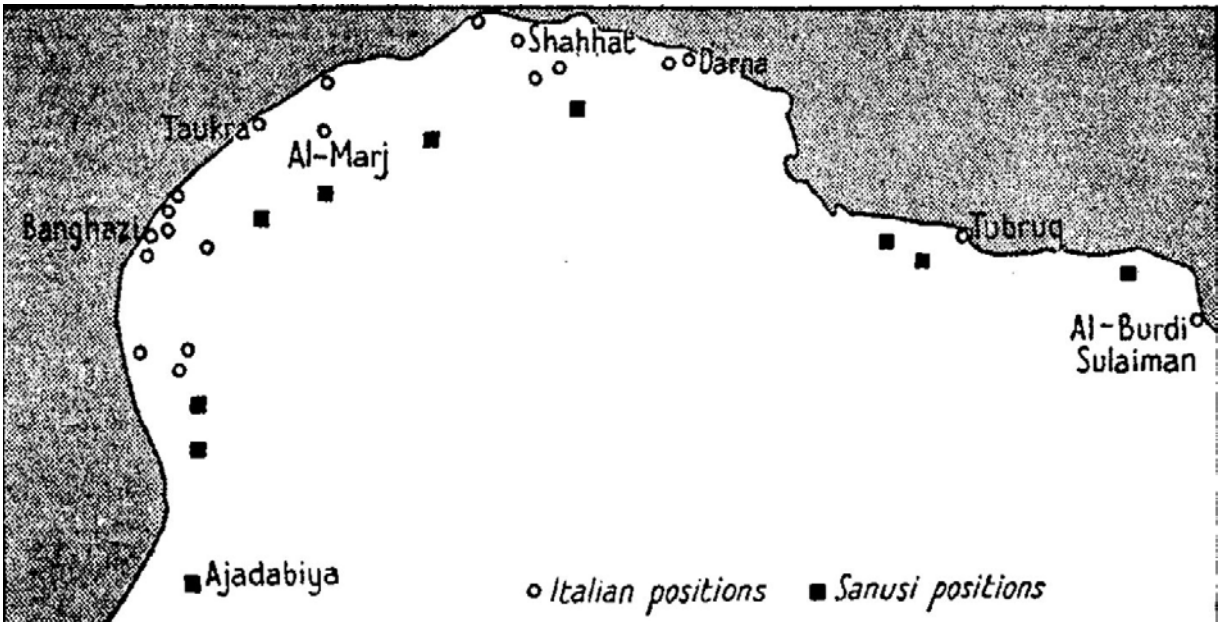

The disposition of Italian and Sanusi positions in October 1916.

[65] Pritchard, p.144.

الملحق 6: جدول بياني يُظهر مدى مشاركة القبائل الليبية في ثورة فبراير 2011[66]:

البيانات القبلية أثناء ثورة ١٧ شباط/ فبراير ٢٠١١

التاريخ	المنطقة	عنوان البيان والمجموعة التي أصدرته
٢٠١١/٠٢/٢٤	الرجبان	بيان قبيلة الرجبان
٢٠١١/٠٢/٢٨	أجدابيا	بيان المجلس المحلي بمدينة أجدابيا
٢٠١١/٠٣/٠٥	نالوت	بيان أهالي نالوت
٢٠١١/٠٣/٠١	–	بيان قرية طمزين
٢٠١١/٠٣/٠١	زليتن	بيان ثوار زليتن
٢٠١١/٠٣/٠١	الجبل الغربي	بيان شباب الرياينة
٢٠١١/٠٣/٠١	الخمس	بيان شباب مرغنة
٢٠١١/٠٣/٠١	طرابلس	بيان شباب تاجوراء
٢٠١١/٠٣/٠١	–	بيان قبيلة ورفلة
٢٠١١/٠٣/٠١	–	بيان الأشراف
٢٠١١/٠٣/٠١	جبل نفوسة	بيان قبائل الأصابعة
٢٠١١/٠٣/٠١	زليتن	بيان قبيلة الأهالي
٢٠١١/٠٣/٠١	الخمس	بيان قبيلة مرغنة
و٢٠١١/٠٣/١٣	ترهونة	بيان قبيلة ترهونة
٢٠١١/٠٣/٠٢	بدر وتيجي وطرابلس والزاوية وصبراتة وصرمان	بيان قبيلة الصيعان
٢٠١١/٠٣/٠٢	التبو	بيان أبناء قبائل التبو
٢٠١١/٠٣/٠٣	الخمس	بيان قبائل مدينة الخمس
و٢٠١١/٠٥/٠٢	–	بيان قبيلة الجوازي
٢٠١١/٠٣/٠٥	بني وليد	بيان شباب بني وليد (ورفلة)
٢٠١١/٠٣/١٠	المنطقة الغربية	بيان قبيلة العجيلات
٢٠١١/٠٣/١٤	الجبل الغربي	بيان وطن الحرابة
٢٠١١/٠٣/٢٨	–	بيان قبيلة الزيادين
٢٠١١/٠٣/٣٠	الجفارة	بيان قبيلة الورشفانة
٢٠١١/٠٤/٠٢	–	بيان قبيلة نفات
٢٠١١/٠٤/٠٦	–	بيان قبيلة أولاد طالب
٢٠١١/٠٤/٢٣	الجميل	بيان قبيلة السعفات
٢٠١١/٠٥/٠٢	أوباري والشاطئ والجفرة وسبها	بيان شيخ قبيلة المشاشية
٢٠١١/٠٩/٠٨	–	بيان قبيلة الأنصاري
٢٠١١/٠٩/٠٨	تونس	بيان شباب المقارحة بتونس
٢٠١١/٠٧/٠٨	ومزرق وأودية فزان بالجنوب (حول اغتيال عبد الفتاح يونس)	بيان إئتلاف شباب وادي عتبة
٢٠١١/٠٧/١٠		بيان قبيلة العبيدات
٢٠١١/١٠/٠٧	الجفرة	بيان أهالي الجفرة
٢٠١١/٠٩/١٩		

المصدر: الموقع الإلكتروني «ليبيا اليوم» (بتصرف): <www.libya-alyoum.com>.

[66] بوطالب، المرجع السابق،92.

المراجع

المراجع العربية والمُعرَّبة

1. أحمد رفيق المهدوي، ديوان شاعر الوطن الكبير (بنغازي: المطبعة الأهلية،1962).
2. إيليا زريق، "الصهيونية والاستعمار"، مجلة عمران، العدد 218، (ربيع 2014).
3. بشير السعداوي، فظائع الاستعمار الإيطالي الفاشي في برقة وطرابلس، (جمعية الدفاع عن طرابلس وبرقة، د.ت).
4. رودولفو غرسياني، برقة الهادئة، ترجمة: ابراهيم عامر، (مصراته: الدار الجماهيرية، ط4 1998).
5. صلاح الجابري، الاستشراق قراءة نقدية، (دمشق: دار الأوائل،2009).
6. عبد الرحمن ابن خلدون، المقدمة، تحقيق: محمد تامر، (القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، ط1 2005).
7. عبد العزيز الدوري، التكوين التاريخي للأمة العربية "دراسة في الهوية والوعي"، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية،2009).
8. عبد المنصف البُوري، الغزو الإيطالي لليبيا "دراسة في العلاقات الدولية"، (القاهرة: الدار العربية للكتاب، 1983).
9. علي عبد اللطيف حميدة، المجتمع والدولة والاستعمار في ليبيا، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1998).
10. علي محمد الصلابي، الثمار الزكية في تاريخ الحركة السنوسية، (بيروت: دار ابن حزم، 2013).
11. محمد الأشهب، عمر المختار، (القاهرة: مطبعة محمد عاطف،1957).
12. محمد المقريف، ليبيا بين الماضي والحاضر "دولة الاستقلال"، (القاهرة: مكتبة وهبة، 2006)، ج4.
13. محمد المقريف، ليبيا من الشرعية الدستورية إلى الشرعية الثورية، (القاهرة: دار الاستقلال، 2008).
14. محمد بازامه، ليبيا هذا الاسم من جذوره التاريخية، (بنغازي: مكتبة قورينا، ط2 1972).

15. محمد بوطالب، الظواهر القبلية والجهوية في المجتمع العربي المعاصر، (الدوحة: المركز العربي للأبحاث، ط1 2012).

16. محمد فؤاد شُكري، السنوسية دين ودولة، (القاهرة: دار الفكر العربي، 1948).

17. محمد منسي، الحملة الإيطالية على ليبيا، (القاهرة: دار الطباعة الحديثة، 1980).

18. محمود الميناوي،" ليبيا سؤال الهوية ومخاطر التقسيم"، مجلة فكر أونلاين، 29 أغسطس 2014.

19. المولدي الأحمر، الجذور الاجتماعية للدولة الحديثة في ليبيا، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ط1 2009).

20. نيقولا زيادة، ليبيا من الاستعمار الإيطالي حتى الاستقلال، (القاهرة: المطبعة الكمالية، 1958).

21. نيكولاي بروشين، تاريخ ليبيا في العصر الحديث، ترجمة عماد حاتم، (بيروت: دار الكتاب الجديدة المتحدة، 2001).

22. نيكولاي بروشين، تاريخ ليبيا من نهاية القرن التاسع عشر وحتى 1969، ترجمة عماد حاتم، (بيروت: دار الكتاب الجديدة المتحدة، ط2 2001).

23. يوسف الشويري، بين النص والهامش: دراسة في التاريخ والقومية والدين (لندن: دار رياض الريس، 1988).

24. يوسف الشويري، سمنار "التاريخ والذاكرة"، الدوحة، جامعة قطر، 17 مارس 2016.

المراجع الأجنبية

1. Lisa Anderson، Religion and State in Libya: The Politics of Identity (the Annals of the American Academy of Political and Social science, 1986).

2. Edward Evans -Pritch, the Sansui of Cyrenaica (Oxford: at the Clarendon press, 1949).

وبناء على ذلك، تُحاول هذه الدراسة أن تجيب عن أسئلة مرتبطة بمراحل تكون الهوية في الحالة الليبية، وتتناولُ العوامل السوسيولوجية والاقتصادية والاثنية والمجالية باعتبارها الطريق الذي يُمكّننا من معرفةِ جذور الدولة الليبية في الفترة الحديثة. وما هو الدور التأسيسي العثماني ثم الاستعمار الإيطالي لليبيا، في نشوء الهوية السياسية والاقتصادية والاجتماعية الوطنية. لمعرفة آثار تلك المرحلة على الواقع الليبي الراهن خصوصاً بعد ثورة السابع عشر من فبراير 2011. وهل حقاً تشكلت تلك الهوية الوطنية من الأساس؟

طالب الدغيم

باحث سوري متخصص في التاريخ المعاصر، درس الماجستير في التاريخ في معهد الدوحة للدراسات العليا في قطر عام 2017، ولديه عدد من الأبحاث والمقالات المنشورة.

idraksy.net

مركز إدراك للدراسات والاستشارات
IDRAK CENTER FOR STUDIES & CONSULTATIONS